

تَنَاسُبُ كَلِمَاتِ آيَةِ الْكُرْسِيِّ

جمعه من التفاسير الفقير إلى ربه الهادي
نزار بن علي حمادي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَمَّا جرت عاداته ﷺ في كريم النظم بذكر عِلْمِ التوحيد وهو المقصود الأعظم، وعلم الأحكام لِيُتَوَسَّلَ به إلى صالح العمل، وعلم القصص للمبالغة في إلزام الأحكام والتكاليف وتقرير دلائل التوحيد، وكانت هذه الطريقة أحسن الطرق وأكملها وأقومها؛ لأن الاستمرار على نوع واحد يفضي إلى الملالة، فذكر ﷺ جملة من عِلْمِ الأحكام والقصص، وأمر بالإنفاق قبل إتيان اليوم الموعود الذي لا تنفع فيه خلة ولا شفاعة، التفتت النفس إلى معرفة من هو المالك لذلك اليوم الخالي عن نفع شفاعة فيه إلا بإذنه، فذكر ﷺ آية الكرسي سيدة آي القرآن التي ما اشتمل القرآن على مثلها، مفتتحا لها بالاسم العَلَمُ الفرد الجامع لصفات الجلال والإكرام، فقال ﷺ: ﴿اللَّهُ﴾ الذي هو الملك الحق في ذلك اليوم، لا ملك غيره حقيقة ولا حكماً.

وَلَمَّا ميَّز ذاته بالاسم العَلَمُ تخصيصاً، وعرف عباده بعنوانه تنصيصاً، أثبت له ﷺ صفات الكمال، منزهاً عن شوائب النقص، مفتتحاً لها بالتفرد والتنزه والتوحد، فقال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ مقررًا لكمال التوحيد؛ فإنه المقصود الأعظم من جميع الشرائع.

وَلَمَّا أثبت ﷺ توحيد ذاته المقدسة، أثبت استحقاقه لذلك لحياته، إشارة إلى نفي إلهية الأصنام والكواكب وغيرها، فقال ﷺ: ﴿الْحَيُّ﴾ ومعناه الباقي أبداً، كما هو القديم أزلاً، الدائم وجوده، الذي لا سبيل عليه بوجه ولا طريق إليه بحال للموت المذهب للحياة والمقتضي للعدم، ولا هو ﷺ قابل لعروض الفناء والزوال؛ لاستحالة ذلك عليه عقلاً؛ إذ لو أمكن أن يلحقه العدم لانتفى عنه القدم، والقدم واجب له، فاستحال منافيه؛ لأن ما ثبت قَدَمُهُ استحال عدمه.

وَلَمَّا أثبت ﷺ الحياة لذاته، ترقى لوصف القيومية فقال ﷺ: ﴿الْقَيُّومُ﴾ ومعناه القائم بذاته، المُسْتَعْنِي عن المَحَلِّ والمَخْصَصِ، المقيم لغيره بما يُصْلِحُهُ ويَحْفَظُهُ عليه أحواله

اللائقة به وأعراضه المُمدة له في جميع آنات وجوده، فقيامه بذاته ﷻ مستلزم لجميع الكمالات والتنزّه عن سائر وجوه النقص، وتقويّمه لغيره يتضمّن جميع الصفات الفعلية، وافتقار كل ما سواه إليه ﷻ، فمن ثم قيل: إنه الاسم الأعظم.

ولمّا وصف الحقّ ﷻ نفسه القدسية بحياته الأزلية المتعالي بها عن الموت الأكبر، وقيوميته السرمدية المتعالي بها عن العجز والافتقار، عقب ذلك بتنزيهاها عن الغفلة بنفي سببها النومي الذي هو الموت الأصغر، فقال ﷻ: ﴿لَا تَأْخُذْهُ﴾ بوجه ولا تناله بحالٍ ﴿سِنَّةٌ﴾ وهو ما يتقدم النوم ويسبقه من الفتور المقتضي رخوًا في البدن وغيبه ما للمشاعر، ﴿وَلَا نَوْمٌ﴾ وهو الحالة العرضية الفتورية التي تعرض للحيوان العاقل وغيره المقتضية له توقّف مشاعره الإدراكية الظاهرة - كالسمع والبصر - عن الإحساس وتعطلّها بالكلية.

وبرهان استحالة اعتراء شيء منهما له ﷻ أنهما ليسا من شأن ذاته العلية وصفاته القدسية؛ وذلك لقدمها وتعاليتها عن النقص والتغيّر والحدوث، ولكون السنّة والنوم آفة، والحقّ ﷻ متعال عن الآفات؛ وقد قال ﷻ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنَامُ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ». ولو نام نقص، ولو نقص افتقر، ولو افتقر وجب حدوؤه، وكل ذلك محال في حقه لأنه ﷻ الكامل القيوم الغني بإطلاق.

ولمّا احتاج المقام لمزيد تقرير، وإيضاحٍ للدليل وتحرير، قال ﷻ زيادةً في تقرير القيومية، واحتجاجاً على تفرّده في الألوهية، واختصاصه بعموم التصرّف في العوالم العلوية والسفلية: ﴿لَهُ﴾ لا لغيره ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ بالمعنى الشامل للعلويات كلها من عرشٍ وكريسيٍّ وغيرهما، ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ بالمعنى الشامل لكل السفليات بما فيها من العقلاء وغيرهم من حيوان وجماد، فهو تقريرٌ على أكمل الوجوه وأبلغها لقيوميته وتديره تعالى للكل، واحتجاج منه ﷻ على تفرّده في الألوهية المشار لها في أوّل الآية الكريمة بالنفي عن غيره وقصرها عليه ﷻ.

وَلَمَّا كَانَ الْمَشْرُكُونَ يَزْعُمُونَ أَنَّ الْأَصْنَامَ تَشْفَعُ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ، فَيَقُولُونَ: (هَؤُلَاءِ شُفَعَاتُنَا عِنْدَ اللَّهِ) ^(١)، (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى) ^(٢)، رَدَّ عَلَيْهِمْ ﷺ بِأَنَّ الْأَصْنَامَ لَا تَمْلِكُ ذَلِكَ، بَلْ وَلَا مَلَكٌ مَقْرَّبٌ وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ إِلَّا بِأَمْرِهِ، فَقَالَ ﷺ: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي﴾ أي: لا أحد ﴿يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ وفي هذا بيان منه ﷺ لكبرياء شأنه وعظيم ملكوته وجلاله، فلا يدانيه أحد - فضلا عن أن يساويه - في ألوهيته وعظيم كبريائه، ولا يقدر غيره على تغيير الأمر الذي يريده بمن استوجب العذاب والإذلال والخزي والنكال، ولا يستطيعه بحال، فضلا من أن يدافعه أو يمنعه من إنزاله به.

وَلَمَّا اسْتَلْزَمَ ذَلِكَ كُلَّهُ حِيْطَةً عَلَيْهِ تَعَالَى بِكُلِّ مَعْلُومٍ، صَرَّحَ ﷺ بِمَا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ مُطَابَقَةً فَقَالَ ﷺ: ﴿يَعْلَمُ﴾ أَزْلاً وَأَبَدًا ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: ما قبلهم ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: وما يأتي بعدهم، ويعلم أمور الدنيا كلها وأمور الآخرة بأسرها، وفي هذا إشارة باهرة إلى إحاطة علمه ﷺ بسائر المخلوقات من جميع الجهات.

وَلَمَّا بَيَّنَّ ﷺ فَهْرَهُ لَهُمْ بِعِلْمِهِ، بَيَّنَّ عَجْزَهُمْ عَنْ إدْرَاكِ شَيْءٍ مِنْ مَعْلُومِهِ، إِلَّا مَا أَفَاضَ عَلَيْهِمْ بِحِلْمِهِ، فَقَالَ ﷺ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ﴾ تَجَدُّدًا وَاسْتِمْرَارًا ﴿بِشَيْءٍ﴾ قَلِيلٌ وَلَا كَثِيرٌ ﴿مِّنْ عِلْمِهِ﴾ بِمَعْنَى مِنْ مَعْلُومَاتِهِ، سِوَاءِ الْوُجُودِيَّةِ أَوِ الْعَدَمِيَّةِ، الَّتِي أَحَاطَ بِهَا كُلُّهَا عِلْمُهُ الْأَزَلِيُّ ﴿إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ أَنْ يَعْلَمُوهُ وَيَقْفُوا عَلَى حَقِيقَتِهِ، فَإِنَّهُمْ يَعْلَمُونَهُ وَيَحِيطُونَ بِهِ بِإِحْدَاثِهِ ﷺ لَهُمْ عِلْمٌ ذَلِكَ فِيهِمْ، وَإِقْفَاهُمْ عَلَى حَقِيقَتِهِ وَفَقَّ نَافِذَ مَشِئَتِهِ.

وَلَمَّا أَعْجَزَهُمْ ﷺ عَمَّا ذُكِرَ دُونَ مَشِئَتِهِ، وَبَيَّنَّ انْفِرَادَهُ بِالْوَحْدَةِ، وَتَفَرُّدَهُ بِالْأُلُوْهِيَّةِ، بَيَّنَّ مَا فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ مِنْ إِحَاطَةِ عِلْمِهِ وَتَمَامِ قُدْرَتِهِ بِقَوْلِهِ مُصَوِّرًا لِعَظَمَتِهِ وَتَمَامِ عِلْمِهِ وَكِبْرِيَاءَتِهِ وَقُدْرَتِهِ بِمَا اعْتَادَهُ النَّاسُ فِي مَلُوكِهِمْ فَقَالَ ﷺ: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ﴾ الشَّامِلُ، وَكَشَفَهُ الْعِلْمِي

(١) يونس: ١٨

(٢) الزمر: ٣

الإحاطي الكامل ﴿السَّمَوَاتِ﴾ بأسرها ﴿وَالْأَرْضِ﴾ كلها، بحيث لا يشذ شيء منها عنه، ولا يعزب عن كشفه الأزلي جزء منها ولو قلَّ، ﴿وَلَا يَوُدُّهُ﴾ ولا يثقله ولا يعجزه ﴿حِفْظُهُمَا﴾ أي حفظ ورعاية السموات والأرض وما انطوتا عليه وما أودع فيهما؛ إذ لو أثقله ذلك لاختل أمرهما ولم يستقم نظامهما فلا يتم إحكامهما، وهو خلاف المشاهدة.

وَلَمَّا كَانَ عُلُوُّهُ تَعَالَى وَعَظَمَتُهُ بِالْقَهْرِ وَالسُّلْطَانِ وَالْإِحَاطَةِ الْعِلْمِيَّةِ بِالْكَمَالِ غَيْرِ مُنْحَصِرٍ فِيهَا مَرَّةً، بَيْنَ تَعَالَى أَنْ ذَلِكَ أَمْرٌ ذَاتِيٌّ لَهُ تَعَالَى حَاصِلٌ أَزَلًا قَبْلَ وَجُودِ سَائِرِ الْمَخْلُوقَاتِ، وَمُسْتَمِرٌّ أَبَدًا بَعْدَ فَنَائِهِمْ، وَلَيْسَ عُلُوُّهُ تَعَالَى عَارِضًا مُسْتَمَدًّا مِنْ قَهْرِهِ لَجَمِيعِ الْكَائِنَاتِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ﴾ مع ذلك كله ﴿الْعَلِيُّ﴾ الذي لا رتبة إلا وهي منحة عن رتبته، المتعالي أزلاً وأبداً تعاليا ذاتيا، المرتفع عن مدراك العقول ونهايتها في ذاته وصفاته وأفعاله، فليس كذاته ذات، ولا كصفاته صفات، ولا كفعله فعل، وهو ﴿الْعَظِيمُ﴾ الذي كل ما سواه بالنسبة إليه مستحققر، لا رتبة له قياسا إلى عظمته، إذ عظمته تَعَالَى ذاتية، وغيرها عارضة زائلة فانية.